

هناك التفتت هذه المرأة إليّ وقالت: هذه أمك صامته لا تقول، وهذه أختك واجمة لا أمل في أن تفهم ولا في أن تجيب، فتكلمي أنت فأني أرى في عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه القحة، وما أظن أن في عينيك ملحاً...! قولي من أنتن ومن أين تقبلن؟ وما خطبك؟ وما إعراضكن عن الطعام؟ وما إيثاركن للصمت؟ قلت ولم أستطع أن أدفع الضحك عن نفسي أمام هذا الهجوم المفاجئ الغريب، وأمام إغراق هاتين المرأتين الآخرين في الضحك، وإغراق أمانا في الصمت، وإغراق أختي في الوجوم: وأنت من تكونين ومن أين تقبلين؟ وما أنت وسؤالك إيانا وإلحاحك علينا؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتها: ألم أقل لكما إنها «قارحة» ليس في عينها ملح، وإنها هي التي ستستمع لي وترد عليّ! ثم التفتت إليّ وقالت: تحقيق... أستمعين؟ تحقيق... أنا مكلفة أن أخضع لك، ستعرفين من أنا، وستعلمين أنني تعودت التحقيق مع النساء ومع الرجال أحياناً والإلحاح في السؤال على أولئك وهؤلاء... ثم أرسلت ضحكاتها ورجّعت شهيقتها، وسألتنى ملحة: من نكون ومن أين نقبل؟!

وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفة حيناً ولينة حيناً آخر، جادة حيناً وهازلة في أكثر الأحيان، وصاحبها تعينانها على بعض ما تريد من ذلك، حتى أنسنا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى، وعرفت من أمرهن ما رغبني في ألا تنقطع الصلة بيني وبينهن ما أقمنا في هذه الدار، وكن جميعاً من أهل المدينة التي أقبلنا منها، قد بلغن هذه القرية معاً قبل أن نبلغها نحن بساعات، أقبلن راكبات وأقبلنا نحن سعيّاً على أقدامنا، فأما هذه المحققة التي كانت تسأل وتلح في السؤال، وتمازح وتغلو في المزاح، فكانت امرأة عظيمة الخطر، عرفت من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل، وتبينت أن اسمها كان شائعاً ذائعاً على جميع الألسنة وفي جميع الأنحاء لا في المدينة وحدها بل في كثير مما يحيط بها من القرى والعزب والضياع.

كان اسمها «زنوبة» وكان تاريخها حافلاً بالخطوب والأحداث، كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس، كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة، وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يفدون على المدينة في فصل الشتاء ليشغلوا في معمل السكر، وكانت تفيد من فصل الشتاء لهواً كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً، حتى إذا تولى عنها الشباب شيئاً وأخذت تدنو من الكهولة قليلاً قليلاً آثرت ظاهراً من القصد، وتكلفت شيئاً من الاعتدال، وأسدت على مجونها ودعابتها ستاراً رقيقاً تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ إلى ما وراءه فتدلل أصحابها على ما يبتغون.